بين حافظ وإمام العبد

للاستاذ خليل الخوري

كان المغفور له حافظ بك إبراهيم شاعرا عظيما واحد الثلاثة الذين رفعوا اسم الشعر عاليا في الجيل الماضي. ومن يجهل أولئك الأدباء الذين لن يمحو كرور الأيام ولا مرور الأحقاب ذكراهم الخالدة — بل من لا يعرف شوقي وحافظا والمطران أولئك الأبطال الثلاثة الذين قد يكونون ولدوا في سنة واحدة فهم من فلتات الزمان. وقد تمر الأجيال بل القرون ولا تلد النساء أمثال هؤلاء العباقرة

وإني أذكر أن في مقهى «سبلندد بار» (مقهى السبت فاير اليوم) المجاور لنزل شبرد المشهور والمقابل لحديقة الأزبكية في القاهرة كان يجلس أدباء الجيل الماضي في خلال الحرب العظمى الأولى وقبلها، ومن أولئك الأدباء — الشعراء الثلاثة الذين خفقت أعلامهم في الأقطار والشيخ طاهر الجزائري والشيخ رشيد رضا والشيخ عبد الحميد الزهراوي ومحمد إمام العبد الشاعر الأسود ورفيق بك المعظم وداود بك بركات والشيخ عبد القادر المغربي ومحمد كرد علي — والعالم الدكتور شبلي الشميل الذي كان أعلم رجال زمانه في العلوم الطبيعية وأنطون الجميل بك؛ وكان ينتاب ذلك المجلس النينة بعد الفينة سليمان البستاني والدكتوران يعقوب صروف وفارس نمر باشا

ذلك كان مقهى العلماء والأدباء يجالسون فيه طوال الساعات يتجاذبون فيه طرف الأحاديث من قديم ومن حديث فكان بمثابة سوق عكاظ، والذي تتاح له مجالسة أولئك الأبطال كان يتعلم منهم الجم مما جهل فقد كانوا معلمين طوراً وتارة متعلمين

ولم يبق من الأحياء ممن ذكرت سوى الدكتور فارس نمر والشيخ عبد القادر المغربي ومحمد بك كرد علي الذين مازالوا يعملون في العلم والأدب والصحافة واللغة أطال الله أعمارهم وصان صحتهم ورحم الله أولئك الأبطال الخالدين

ووقع مرة أن حافظا كان في المقهى ومعه بعض صحبه فأقبل عليهم محمد إمام العبد والكآبة تلوح محيا الأسود فيزيده حلوكا؛ وبعد أن سلم على الإخوان الفطاريف جلس إلى جانب حافظ فذعر حافظ من ذلك المنظر وكربه أن يرى إمام العبد يعاني ذلك الغم — وقال له ويحك أقل ما أصابك. هل ماتت زوجتك أم مات ابنك وأنت لا زوجة لك ولا ابن ولن يكون لك لا ذلك ولا هذا — ويحك ألا تضحك قليلا بل ألا تبتسم حتى يبدو اليسير الجميل من الدميم الكثير منك — فتظهر أسنانك البيضاء الناصعة فتشفع ولو قليلا لسواد وجهك الحالك؟ فانهمرت العبرات من مآقي الشاعر البائس وقال لحافظ كيف أضحك وقد بت ليلة أمس كلها أعاني الكرى من وطأة الطوى — أعطني اليسير مما رزقك الله — فبكى حافظ — واستبكى سائر الجلساء وكانوا كلهم أولي المقدرة والإملاق وجيوبهم من النضار بل من اللجين أفرغ من البيداء من الماء — وقد كان حافظ أقلهم شقاء وبؤسا على رغم شهرته في الشقاء والبؤس

بكى حافظ على إمام العبد وعلى نفسه وعلى سائر أصحابه ومد يده إلى أحد جيوبه وأخرج قطعتين من النقد قطعة من الذهب وقطعة من الفضة — أما قطعة الذهب فكانت جنيها إنكليزيا، وقطعة الذهب قرشا صاغا مصريا؛ وألقى القطعتين على المائدة التي كانت بين الجلساء وقال لإمام العبد خذ القطعة التي تشاء من هاتين القطعتين. فتناول الإمام القرش وترك الجنيه التألق على وولى وهو يبكي؛ فلحق به حافظ واستحلفه أن يأخذ الجنيه وشدد عليه في ذلك وهو يأبى وكان بين المحسن والمستجدي البائس صراع عنيف؛ هذا يرفض الاستئثار بالجنيه ويكتفي بالقرش، وذاك يصر على إعطائه الذهب واستبقاء الفضة حتى تغلب بعد طول الصراع حافظ على الإمام ومضى هذا بالجنيه وترك القرش لحافظ

طرابلس الغرب — خليل الخوري